**الانضباط تربية  
الزبير مهداد**  
**باحث تربوي**  
  
**يشتكي الآباء والأمهات كثيرا من قلة انضباط الأطفال والمراهقين في حياتهم الأسرية والمدرسية. وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي يبذلها الوالدان في سبيل حمل أبنائهم على الانضباط للأعراف والتقاليد الاجتماعية والأنظمة الأسرية، فإن لديهم ميلا إلى ارتكاب المخالفات، فلا يلتزمون بالقواعد السلوكية المرغوبة ولا يطيعون الأوامر، وهذا يعطي انطباعا بنشوء بوادر وميول انحرافية، وينبئ بوجود قطيعة بين الطفل ووالديه، ويعبر عن رفض الطفل للتعليمات والتوجيهات والأوامر التربوية، مما يشعر الوالدين بعبثية الجهود التربوية التي يبذلانها، ويبعث لديهما المخاوف بخصوص مستقبل الطفل الأخلاقي.**  
  
**إن ضبط السلوك هو أهم خطوات التنشئة الاجتماعية، لذلك كان الانضباط في الأصل مرادفا للتربية، ويتم عن طريق سلطة خارجية، أو عن طريق الفرد نفسه بخضوعه التلقائي للأعراف والمعايير الاجتماعية التي تحدد المستويات الأخلاقية للجميع.**  
  
**ويعتقد بعض الناس أن الانضباط يقترن بالعقاب، على أساس أنه الوسيلة الفعالة لتحقيقه، ولكن مفهوم الانضباط أشمل من ذلك؛ فهو يعني إطاعة الأوامر والتعليمات، واحترام القواعد والقوانين، والتقيد بالنظام، والالتزام بالتقاليد والأعراف؛ لأجل ذلك، فأفضل ضبط هو ما يكتسب بالتوجيه والنصح والإقناع لخلق انضباط بدل العقاب الخارجي.**  
  
**بين الضبط والانضباط**  
  
**الانضباط نوعان: ضبط خارجي، وانضباط داخلي ذاتي**  
  
**الضبط الخارجي: هو مجموعة التوجيهات والتعليمات والتنبيهات الصادرة من الخارج إلى الفرد لحمله على الالتزام بقواعد السلوك. هذه التنبيهات تكون على يد الأب أو المدرس أو رئيس النادي أو غيره ممن يمتلكون سلطة على الفرد، ويستخدمون صلاحياتهم في مراقبة احترام اللوائح والقوانين، للمحافظة على النظام لتحقيق أهداف المؤسسة.**  
  
**الانضباط الداخلي (الذاتي): هو التزام الفرد بالتعليمات واللوائح، والسير ذاتيا وفقا لقوانينها وأنظمتها، من خلال توجيه رغباته، وتنظيم ميوله ودوافعه للوصول إلى نمو السلوك الاجتماعي المقبول اجتماعيا. فالانضباط سلوك صادر من الذات وليس من الخارج، يلتزم فيه الفرد تلقاء نفسه بالأنظمة والتعليمات، بكبح النزعات والرغبات السلبية، ويقوم على قوة الإرادة والعزم والتحكم في النفس وعدم الانصياع للأهواء، من غير الحاجة إلى ضبط من جهات خارجية، وإن كان في الغالب أن الانضباط الذاتي يكتسب بداية من مصادر الضبط الخارجي، ويكون نتيجة نشوء آلية داخلية لتوجيه السلوك.**  
  
**العوامل التربوية المؤثرة في الانضباط الذاتي للناشئة**  
  
**لقد أكد التربويون على أن الانضباط القائم على التحكم الذاتي (الانضباط الذاتي) هو أفضل أنواع الانضباط؛ لأنه شكل من أشكال الوعي الذاتي، الذي يعطي النشء الفرصة لتقييم سلوكهم والتحكم فيه.**  
  
**ومن أبرز العوامل البيئية التي تؤثر في الانضباط الذاتي: الأسرة والمدرسة وجماعة الرفاق ووسائل الإعلام.**  
  
**< الأسرة: الأسرة مؤسسة اجتماعية فرعية، تتألف عادة من الأب والأم وواحد أو أكثر من الأطفال، فهي وعاء تربوي تنمو في داخله شخصية الطفل وتتطور وتنضج اجتماعيا ونفسيا وعاطفيا، وتنمو قدراته البدنية ومهاراته الحركية، وذكاؤه، وتفاعلاته الاجتماعية. فالأسرة مسؤولة -إلى حد كبير- عن سمات الأطفال الشخصية والفكرية.**  
  
**تستعين الأسرة بوسائل شتى لتربية وضبط الأطفال، كالعلاقات، وتلبية الحاجات، والحماية، والتعزيز.. وغيرها، مما يمكنها من توجيههم وضبطهم ليصبحوا أشخاصا يتصرفون بطريقة اجتماعية، يميزون بين الخطأ والصواب، وما ينبغي قبوله أو تركه من السلوك الفردي والاجتماعي، ويستطيعوا العيش والتوافق مع الجماعة التي تحيط بهم. هذه الأمور تحقيقها مرهون بمدى نجاح الأسرة في أداء وظيفتها التربوية الاجتماعية. ونجاح الأسرة في وظيفتها يعني نشأة أفراد منضبطين ذاتيا.**  
  
**< القوانين والأنظمة المدرسية: تؤدي المؤسسة المدرسية مهام متعددة للعناية بالنشء واحتوائهم وتربيتهم، وتلبية كثير من حاجاتهم النفسية والعاطفية والعقلية، التي كانت تسهر الأسر على تلبيتها. فاستبدل الأطفال، ذكورا وإناثا، منذ سنيهم المبكرة، بحضن الأسرة حضن المدرسة، وأضحى الأطفال يعيشون السنوات العشرين الأولى من عمرهم في الفضاء المدرسي، وأصبحت المؤسسة المدرسية تكتسي أهمية خاصة في حياة النشء وتربيتهم وتكوينهم.**  
  
**فالمدرسة هي الحاضن الأوسع للنشء، وفضاء المؤسسة المدرسية المتنوع المكونات، يشكل قناة مهمة للخروج من دائرة العائلة والقرابة إلى مجال أوسع، يضم أقرانا (وهم التلاميذ)؛ وراشدين يمثلون الرعاية التربوية (وهم الأساتذة)؛ وآخرين يمثلون السلطة (وهم الإداريون). كما يتيح هذا الفضاء من خلال الأنشطة التي تقام في أرجائه، والأندية التربوية التي يحتضنها، فرصا للحوار الحر والمبادرة المتحررة من سلطة المربين والإداريين، ولتكوين جماعات أصدقاء والانتماء إليها، وتدعيم المعتقدات والقيم والاتجاهات التي تكونت في الأسرة، أو تغيير بعض العادات السيئة التي اكتسبها الفرد من خلال أسرته. والتربية المدرسية وأنشطتها وأنديتها تخضع لقوانين المؤسسة المدرسية وأنظمتها. الخضوع لهذه الأنظمة والقوانين يعد بمنزلة تمرس واستئناس على التعامل مع الأنظمة والقوانين الناظمة لشؤون البلاد.**  
  
 **جماعة الرفاق: إن أثر جماعة الرفاق في تكوين الانضباط الذاتي لا يقل عن أثر المؤسسات الأخرى، كالأسرة والمدرسة، بل قد يتجاوزها أحيانا. هذه الجماعة -التي تتألف من الأقران الذين يتقاربون سنا، ويشتركون في المشاكل والصراعات والميول، ويؤلفون بعضهم مع بعض وحدة متماسكة في إطار اجتماعي خاص وأسلوب معين في الحياة- تأثيرها يقوى في فترة المراهقة، التي يتسع فيها المجال الاجتماعي أمام المراهق، فلا يبقى تفاعله حصرا على الأسرة، بل يمتد إلى علاقات خارجية، تشمل تكوين صداقات تتسم بالشدة والعمق وقوة التأثير.**  
  
**ولشدة هذه الجماعات وقوتها ومكانتها في نفسية النشء، ولمكانتها المرجعية في حياتهم، باعتبارها مصدرا لأنماط السلوك والقيم وأساليب التفكير ومقاييس الحكم، فإننا نشهد -أحيانا- مواجهة بعض الأطفال والمراهقين لآبائهم بالرفض لبعض المسائل، في حين لا يجرؤون على مواجهة أفراد جماعتهم بمثل ذلك.**  
  
**فجماعة الأصدقاء التي ينتمي إليها الفرد يتماهى فيها، ويتوحد معها، ويستمد منها معاييره واتجاهاته وقيمه، فتؤثر في تكوين سلوكه، سلبا أو إيجابا، طبقا لأهدافها، فنلاحظ أن الشخص الذي ينتمي إلى جماعة رفاق ذات انضباط ذاتي يحاول مجاراتها في هذه الخاصية، وعلى العكس من ذلك إذا كانت جماعة الرفاق لا تستجيب إلا للضبط الخارجي في توجيه سلوكها، فهو في الغالب يحاكي جماعة الرفاق في تكوين هذا النوع من الانضباط.**  
  
**إن الانتماء إلى الجماعة يتيح للنشء فرصا مهمة لتأكيد الذات وتدعم نزعته إلى الاستقلال. فالمراهقون يحسون بحاجة إلى جماعة يختارونها بأنفسهم وينتمون إليها، حتى يشعروا بالقيمة والقوة داخلها، تدعمهم في مواجهة قهر السلطة الوالدية وسلطة المدرسين.**  
  
 **تعاليم الدين: يعتبر الدين من أفضل محكات الحكم على السلوك؛ لأنه يؤطر الثقافة الاجتماعية والأعراف السائدة في المؤسسات الاجتماعية على اختلافها. فالدين الإسلامي الحنيف، هو دين انضباط في المقام الأول، والجنة هي جزاء المنضبطين، وجميع العبادات تشترط انضباط العابد وتنمي فيه هذا السلوك، كالصلاة مثلا، وهي الشعيرة التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم، تقوم على الاصطفاف الدقيق في صفوف، واتباع الإمام، والاقتداء به. والصيام أيضا، أقوى وسائل ضبط النفس الذاتي، خلال موعد محدد يبدأ بدقة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والتحكم بقوة في الشهوات والسلوك وردود الفعل، والتحمل، فالدين الإسلامي الحنيف يحثنا على الانضباط، مظهرا وجوهرا.**  
  
**إن التربية الإسلامية التي تستقي منهجها من القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، هي في الواقع أقوى مكون للانضباط الذاتي. والملتزم بالدين الإسلامي خير التزام يجعل نظر الله سبحانه ملازما له في كل ظروفه وأحواله، فينضبط في حياته وعلاقاته وسائر معاملاته.**  
  
**التربية على الانضباط**  
  
**التربية تقوم على الانضباط، لأنها تأهيل اجتماعي، تكسب النشء الحكم الاجتماعي والتوجيه الذاتي الذي يلزم لتحويله إلى راشد مسؤول في مجتمعه. فالطفل لا يولد بتصور جاهز وواضح حول أنواع السلوك المقبول أو المرفوض اجتماعيا. وبفضل التربية يتم خلال الطفولة تشريبه القيم وإكسابه معايير السلوك، في أحضان الأسرة والمدرسة والنادي وغيرها من المؤسسات، مما يسهم في تحقيق نضجه الاجتماعي، من خلال محتوى التأهيل الاجتماعي الذي يمكنه من القدرة على إصدار الحكم الاجتماعي وبناء سلم القيم وتوجيه سلوكه في ضوئه. ومحتوى التأهيل الاجتماعي يتحدد بقوة بتجربة الطفل الذاتية، وملاحظاته الشخصية ومقارناته ومبادراته، أكثر مما يتحدد بالنصح والتلقين داخل الأسرة أو المدرسة.**  
  
**ويبقى للأسرة والمدرسة فضل الضبط من خلال التنبيه والإرشاد والمساعدة على التوجيه، والفضل الكبير يكمن في توفير فرصة التقمص للأبناء من خلال الاقتداء بالقدوة الراشدة للأب أو الأم أو الأخ أو المعلم أو غيرهم من الأشخاص الذين يشكلون أمثلة مشخصة واضحة يتقمصها الأبناء.**  
  
**يستجيب الأطفال لتأثير والديهم بتشكيل منظومتين متكاملتين من المعايير: المنظومة الأولى هي الوجدان، وهو شعور داخلي يمنع الطفل من إتيان السلوك المرفوض. ويتكون هذا الشعور عندما يستوعب الطفل لائحة الممنوعات والمحرمات. المنظومة الثانية هي الأنا الأعلى التي تتشكل من مجموعة الأهداف والقيم الإيجابية المكتسبة. وهي لا تنفصل عن الوجدان، فعندما يقدم الطفل على اقتراف السلوك المحرم ويخضع وجدانه للإحساس بالإثم وهذا ما يستثير الأنا الأعلى ويدفع إلى الإحساس بالعار للتقصير في تحقيق ما يتوجب تحقيقه.**  
  
**إن الضبط يكون مفيدا، فعالا وناجعا في حالات:**  
  
**1- استمرارية الضبط.**  
  
**2- كون الضبط إقناعيا وليس عقابيا.**  
  
**3- توجيه الضبط إلى السلوك وليس إلى الناشئ.**  
  
**استمرارية الضبط**  
  
**ثبت من الدراسات التي أجريت على السلوك أن التعزيز يلعب دورا مهما في تثبيت الاستجابات السلوكية، أما حين لا يستقر الوالدان على معايير سلوك الأولاد، ولا تثبت لديهما معايير السلوك الجيد أو القبيح، بحيث قد يعاقب الطفل على سلوك من المحتمل أن يكون قد نال عنه ثوابا، أو لم يعاقب عليه في وقت سابق؛ فإن الأولاد في تلك الحالة يستمرون في إتيان السلوك المنافي للجميع، مثل: العدوانية، والاستخفاف بالآخرين، والقسر، والرعونة تجاه الآخرين.**  
  
**الضبط المتذبذب يؤدي إلى ضرب فج من التأهيل الاجتماعي. بحيث يسلك الفرد بحسب رؤيته للحوادث الخارجية، وليس بحسب آلية التوجيه الداخلي. يفشل في تنمية وجدان ملائم، ويرى مصيره متحكما فيه من طرف قوة خارجية، ويكون المانع من ارتكاب الفعل المستهجن هو الخوف من العقاب، وإذا أمن العقاب قام بالفعل.**  
  
**في حين أن الأطفال ذوي الآلية الداخلية للتوجيه يكون لديهم إحساس عال بالضمير، فيحسون بالإثم إذا آذوا غيرهم، ويكون لديهم استعداد لقبول اللوم على الخطأ، وللاعتراف بسوء الفعل، ولمقاومة محاولات الآخرين لدفعهم لارتكاب الأعمال اللاأخلاقية. فالضبط الذي يؤدي إلى تكوين آلية الضبط الداخلية لدى الفرد، يسهم في تكوين ناشئ يتحول بسهولة إلى راشد مسؤول.**  
  
**الضبط الإقناعي بدل العقابي**  
  
**يستعين بعض الوالدين في ضبط سلوك أطفالهم بالوسائل القسرية المؤلمة، فيلجأون إلى الضرب المبرح لأتفه الأسباب؛ وفي ظنهم أن هذه القسوة ستحقق لهم التربية السليمة لأطفالهم. وفي أحيان كثيرة يعاقبون عشوائيا، أو يجتهدون في التنميط بإخضاع الطفل لنمط ومعيار معين، كل ذلك باعتماد العقاب البدني الواسع الانتشار في مجتمعنا، الأمر الذي تكون له انعكاسات سيكولوجية ووجدانية على الطفل، ولا يؤدي إلى النمو الخلقي المطلوب، بل إن نتيجته الوحيدة هي إضعاف ثقة الطفل في ذاته، وسعيه الدائم للبحث عن الطرق والوسائل التي تجنبه العقاب. فاستخدام العقاب يؤدي إلى إضعاف النمو الخلقي.**  
  
**أما حين يكون الضبط إقناعيا يعتمد أسلوبا هادئا وعقلانيا في مواجهة السلوك الخاطئ، حيث يوضح الأهل لطفلهم لماذا يريدونه أن يغير سلوكه، أو يشرحون له الأذى والأضرار التي ألحقها بغيره، وإمكانية تفاديها، بعيدا عن التهديد بالعقوبة، فإن ذلك يرغبه في تصحيح سلوكه، ويساعده على تشكيل منظومة داخلية من القواعد والتوقعات التي تساعده على توجيه سلوكه.**  
  
**ضبط السلوك وليس الفرد**  
  
**في الغالب الأعم لا تميز الأسر بين الطفل كذات، وبين ما يفعله كسلوك صادر عن الذات ومنفصل عنها. ومن عيوب طريقة الضبط السائدة في مجتمعنا، هو أنه يوجه إلى الطفل ذاته (لماذا فعلت كذا؟ أو قلت كذا؟ أو تركت كذا؟) الأمر الذي تكون له تأثيرات ضارة بالطفل تلحق تقديره لذاته، وترسخ فيه الشعور بأنه غير محبوب. في حين أن الضبط الذي يستهدف السلوك (إن ما قلته سيئ، إن ما فعلته ضار، إن ما تركته مفيد) يساعد الطفل على المحافظة على احترامه لذاته. ويجعل تقبله للضبط ممكنا واكتسابه المعايير الخلقية سهلا، خصوصا إذا اكتسى لباس المرونة والدفء والحب. فتقبل الأسرة لطفلها يزيد من تقديره لذاته، وتعلقه بمكانته في الأسرة، وارتباطه العاطفي بها، مما يسهم في تقوية تأثيرها عليه، خصوصا في ميدان إكسابه الحكم الاجتماعي والتوجيه الذاتي.**  
  
**التربية في مواجهة التحديات**  
  
**إن التربية تعد أداة مهمة من أدوات الضبط الاجتماعي، تساعد على تنظيم السلوك بتلقين الفرد توقعات المجتمع السلوكية، وغرس قيم المجتمع ومعاييره واتجاهاته لدى الأفراد، إلا أن هذه المهمة أصبحت اليوم تكتسي صعوبة كبرى، نتيجة التطور التقني والاجتماعي، الذي وسع دائرة المتدخلين في تربية النشء والتأثير فيه، فبعدما كانت مهمة التربية تنحصر في الأسرة، ثم المدرسة والرفاق، أصبحت اليوم تشمل وسائل الإعلام والأندية وشبكات التواصل الاجتماعي وغيرها. وصعوبة التحكم في هذه الوسائل جعلت عملية التنشئة تكاد تنفلت من كل سيطرة، ونتائجها لا تخضع لقواعد اجتماعية موحدة، مما عدد المشاكل التربوية ونوعها وجعل مهمة التربية تزداد تعقيدا وصعوبة.**